تاريخ الارسال 2017/11/16 تاريخ النشر: جوان 2018

صورة المرأة في مسرحية (شمس وقمر) لـ"توفيق الحكيم"

أ. فريدة درامنية
جامعة عنابة

الملخص:

يعد موضوع المرأة موضوعا إنسانيا تناولته الأقلام الأدبية العربية باختلاف الأجناس الأدبية، فقد تحدث عنها الشاعر والروائي وحتى المسرحي، وقد ظهر في الساحة الأدبية المسرحية العربية ما سمي بالمسرح السياسي، متأثرا بالمسرح الغربي من جهة وبالظروف السياسية العربية من جهة أخرى.

في ظل الظروف السياسية والسلطة الذكورية الحاكمة صورت المرأة في المسرح السياسي العربي في نمطين مختلفين: صورة ايجابية وصورة سلبية. ويعد "توفيق الحكيم" من بين الكتاب الذين كشفوا وضع المرأة في سلطة الحاكم الذكر، ومن أهم مسرحياته التي جسدت هذه الرؤية مسرحية (شمس وقمر). وهي كما تبدو للقارئ مسرحية فيها الكثير من الأمل، فالشمس هي ضياء الصباح والقمر هو مصباح الليل، واستطاعت هذه المسرحية كشف المستور سياسيا، إذ نجحت الأنثى في تغيير نظام ذكوري ظالم من خلال عودة العدالة إلى نظام والدها والأمير "حمدان".

الكلمات المفتاح: المرأة، المسرح السياسي.

Résume :

Le sujet de la femme est un sujet humain qu'ont traité plusieurs plumes littéraires arabes avec toute la diversité des genres littéraires, le poète, le romancier et même le dramaturge, tous se sont étalés sur ce sujet. Le théâtre politique est apparu sur la scène littéraire et théâtrale qui est influencé par le théâtre occidentale, d'une part, et des circonstances politiques arabes, d'autre part.

Suite aux circonstances politiques et de l'autorité masculine gouvernante qui a donné l'image de la femme dans le théâtre politique arabe dans à travers deux aspects distincts : Un positif et un négatif. « Tawfik EL HAKIM » est l'un des auteurs qui ont montré la situation de la femme sous l'autorité du gouverneur masculin, l'une des pièces théâtrale qui ont matérialisé cette vision théâtrale « Chams et Qamar » ; elle est au lecteur, comme elle le paraît être, une pièce théâtrale pleine d'espoir, considérant que Chams est la clarté du jour et Qamar est le réverbère de la nuit. Cette pièce théâtrale a pu dévoiler ce qui était caché politiquement, sachant que le femme a réussi à changer le système patriarcal injuste à travers le retour de la justice au système patriarcal et l'Emir « Hamdane »

Mot clé: la femme, le théâtre politique

الموضوع:

يعد المسرح المصري من أكثر المسارح العربية اهتماما بالقضايا السياسية، بل وينسب له سبق التأليف فيه، ويغفل الكثير من النقاد أسماء كتاب مصريين اهتموا بالمسرح السياسي وتناولوا المرأة كقضية من قضايا سياسة الوطن العربي، نذكر من هؤلاء "توفيق الحكيم"، والذي يعد من المقامات العالية في المسرح العربي-خاصة المسرح الذهني-، كما لا نغفل أن معظم أعماله المسرحية تناولت المرأة كمحور أساسي للأحداث، وعل هذا ما تؤكده عناوين معظم أعماله المسرحية، للحكيم علاقة خفية بالمرأة، فهناك من يراها متوترة مدعيا كره "الحكيم" للجنس اللطيف، سنكشف ذلك من خلال مسرحية (شمس وقمر)، فكيف نظر "توفيق" للمرأة سياسيا؟ وكيف صورها؟.

«يتضح في قراءة وتحليل الخطاب السياسي المصري خلال العقد الأخير أن مشاركة المرأة المصرية في الحياة العامة والحياة السياسية تأتي في مقدمة أولويات العمل الوطني، وتحظى هذه القضية بعناية خاصة من قبل القيادة السياسية (...) لتحقيق قيمة المواطنة (...)، على أساسا أن مفهوم المواطنة يقوم أساسا على مبادئ المساواة وتكافؤ الفرص بين جميع المواطنين دون تمييز بينهم بسبب الجنس أو اللون أو الدين أو العقيدة.»[1]

من المثير للاهتمام أن نجد بلدا عربيا يجعل المرأة مساوية للرجل في حقوق المواطنة والسياسة، ولكن هل هذا الحكم ينطبق على كل نساء مصر؟ أم على فئة معينة كالسيدة الأولى وحاشيتها؟، وإلا كيف نفسر وجود فئة أنثوية مضطهدة بشكل بارز في مصر أكثر من أي بلد عربي آخر.

بالعودة إلى مسرحية (شمس وقمر) السياسية، نجد أن أحداثها تبدأ من مملكة السلطان "نعمان" وبالحديث عن المملكة أكيد لابد من الحديث عن ملك ورعية، عن حاكم ومحكوم، عن سلطة إما ظالمة أو عادلة.

يبدو السلطان مهتما بابنته "شمس" التي يريد أن يدبر لها زواجا ملكيا، فهي في نظر والدها مغفلة.

« الوزير: الكل اليوم يريد الحياة المنعمة....

السلطان: حقا....إلا ابنتي المغفلة.....وأنت يا وزيري لا تريد أن تفكر لي في حل لهذه المشكلة؟....»[2]

إذا فالسلطة الذكورية تحاول فرض نفسها هنا، متمثلة في شخص الملك الوالد، يرى السلطان أن الحياة السعيدة لابنته تتمثل في الجانب المادي أو الشكلي، من خلال تزويجها بمن يساويها مكانة.

في المقابل لا تريد الأميرة "شمس" أن تحيا الحياة التي رسمها والدها، حيث تحاول قلب بعض القوانين في المملكة.

تضع الأميرة "شمس" شرطا من أجل الزواج، حيث تحاور كل من يتقدم طالبا بها للزواج، مقابل جلد كل مرفوض أو غير مناسب لها.

يحاول كل من الوزير والسلطان التحايل على المرأة من خلال حصر المتقدمين إلى الزواج في الأمراء فقط.

«الوزير: نقبل الشرط مع التعديل....

السلطان: أي تعديل؟....إن الشرط هو أن يمر الناس كلهم تحت شباكها وهي تختار من بينهم دون تمييزا.

الوزير: نلبي ذلك....مع تحفظ بسيط، هو أن تسمح لنا بإجراء فرز مبدئي....وبذلك نستبعد كل من ليس جديرا بها.

السلطان: أصبت....نعم....وربما استطعنا التحايل، فدنسنا بعض الأمراء وحصرنا الاختيار فيهم....»[3]

يصر الوالد/الذكر على تزويج ابنته الأميرة إلى أمير، دون أخذ مطلبها أو قرارها بعين الاعتبار.

وقد نص ديننا على حق المرأة في قبول الزواج من رفضه، ولا يصلح الزواج دون موافقتها.[4]

لقد كرم ديننا المرأة وأعطاها حقوقا أكثر مما أعطتها-مثلما تدعي- المؤسسات الأوروبية للمرأة، فللمرأة حق التخيير بين رجل وآخر، ولكن ليس كما يدعي الشيعة بأن موافقة المرأة وحدها تكفي لإتمام عقد النكاح، دون ولي، «لقد جاء عن أهل البيت، عليهم السلام روايات كثيرة أطلقت الحرية في الزواج للبالغة الراشدة، وتركت لها أن تختار من تشاء من الأزواج (...) فإن أمرها جائز تتزوج إن شاءت بغير ولي.»[5]

فإذا رجعنا إلى المسرحية نجد سلطة الذكر/السلطة السياسية تحاول فرض ما تراه هي صواب في حين ترى الآخرين على خطأ. ومع هذا لم تستطع هذه السلطة التحايل على الأميرة التي أصرت على شرطها.

«السلطان: ها هي ذي شمس النهار قد أقبلت....

شمس: (ظاهرة من الباب) طلبتني يا أبي؟.

السلطان: نعم....هل أنت مصرة على شرطك؟.

شمس: بالطبع مصرة...»[6]

قد يتساءل الكثيرون هما: لماذا رغم مكانة السلطان قبل بشرط ابنته؟.

ربما هو خوف من بقاء ابنته دون زوج مدى حياتها، أو هو خوف من هروب ابنته وإلحاق العار به، أو خوف على مصيرها بعد وفاته، يمكن قراءة عدة خطابات مضمرة في خضم هذا الخطاب المعلن.

يحاول الوالد/الذكر فرض زواج طبقي سياسي، الهدف منه أكبر من السلطة الملكية أو كسب أكبر دعم لسياسته، لكن الأميرة الأنثى ترى في الأمراء ما لا يراه غيرها خاصة السلطان والوزير.

«الوزير: وما هي الصفات التي لا تريدينها فيه؟

شمس: لا أريده من الأمراء الكسالى الأغبياء..

السلطان: حذاري يا شمس النهار أن يكون في كلامك تلميح مقصودا....»[7]

ترى الأميرة في الأمراء صفتا الكسل والغباء، وهذا ما أغضب السلطان، إذ في كلامها مساس بسلطته العليا وكبريائه.

لا تريد الأنثى "شمس" أن يفرض عليها والدها زوجا معينا، بل لا تريده أن يصنع لها حياتها، بل تريد أن تصنعها بنفسها.

«السلطان: كنت أريد لك حياة رغدة مضمونة الرخاء والنعمة...

شمس: نعم....كتلك الحياة التي صنعتها لشقيقتي...

السلطان: سنراك ماذا ستصنعين أنت لنفسك.

شمس: يكفي أن أصنعها بنفسي...

السلطان: نفذ لها طلبها أيها الوزير....»[8]

إذا ما نظرنا في الأمم العربية السابقة، سنجد العكس تماما، إذ لم تكن الأنثى في الأسر الملكية تختار شريك حياتها بحسب شروطها أو أن تختار من يختارها اختبارات للفوز بها، بل كانت تزف لمن يرون فيه الأجدر بمكانتها-إلا نادرا-.

لقد حاول "توفيق" أن يعطينا نظرة أخرى مغايرة للأنثى المضطهدة سياسيا، إذ حاول أن يقدم لنا صورة للمرأة الحرة التي لها الحق الكامل في فرض اختياراتها لشريك عمرها، وقد أقر الإسلام بهذا الشرع وجعله قائما، إذ يحق للفتاة القبول أو الرفض، دون فرض من السلطة الذكورية.

يتقدم الكثير من الخطاب لخطبة الأميرة، غير أنهم يجلدون فيتقلص عدد الوافدين، فاحدهم يعدها بقصور وحياة.....فتطلب جلده، والآخر يعدها بالحب والأولاد الأمراء فتأمر بجلده كذلك.

غير أن القارئ يتفاجأ، ويحرق أفق انتظاره، مثله مثل "شمس النهار"، حينما يظهر متميز عن غيره ممن سبقوه من الخطاب.

«الرجل الثالث: كل من في البلد بدون تمييز له الحق في التقدم ليد الأميرة شمس النهار....أليس هذا نص الإعلان؟، بدون تمييز....هذه الكلمة أعجبتني....وقلت لنفسي: لماذا لا أستخدم حقي؟.

شمس: إذا جئت لاستخدام حقك ليس إلا؟.

الرجل الثالث: بدون شك....تأخرت قليلا...لأنه كان يجب أن أجمع ثمن هذا الرداء المناسب...»[9]

لابد للقارئ أن ينتبه للعبارة الواردة في هذا الخطاب المسرحي، إنها عبارة جد مميزة لها علاقة كبيرة بالسلطة (التمييز) إذا ما قرأنا هذا الحوار فإننا نستنبط السلطة السائدة في هذه المملكة، إنها تؤكد أن السلطان "نعمان" يسير بنظام التمييز، ويكفينا دليلا محاولة تزويج ابنته من صاحب الشأن العالي، لقد أقر الرجل المتقدم لخطبة ابنته بأن له حقوق، فإذا كان شرط الأميرة هو اختيار كل من يتقدم له، رجلا فلاحا أو أميرا، غنيا أو فقيرا....، فإن من حق هذا الرجل التقدم لخطبتها لأن الشرط لا يميز بين أحد من الرجال، كما يبدو هذا الرجل إنسانا بسيطا بل معدما لدرجة أنه تأخر أياما لشراء رداء بسيط.

إذا، كانت سلطة الذكر/السلطان "نعمان" تفرض نظاما تمييزيا داخل المملكة، تمييز بين الأمراء (علية القوم) والرعية (أسفل القوم)، تمييز بين أغنيائها وفقرائها.

حاولت الأنثى "شمس" قلب موازين بعض التقاليد الملكية بطريقة ذكية من خلال رفض أن يفرض عليها زواج ملكي من جهة، ومن خلال الإعلان الذي أضافت فيه جملة (دون تمييز).

«الوزير: فورا....سأطلق المنادين في البلد ينادون: كل من يتقدم لطلب يد الأميرة شمس النهار ويفشل يجلد ثلاث جلدات....

شمس: بل يجب أن ينادوا قبل ذلك: إن أهل البلد جميعا بغير تمييز لهم الحق أن يتقدموا ويطلبوا شمس النهار...»[10]

إنها مسرحية سياسية تبدو من خلالها الأنثى في صراع كبير مع سلطة الذكر المستند، تقر الأميرة "شمس" بأن طلب الزواج منها هو حق مشروع لكل الرعية.

تحاول "شمس" هنا أن تعطي للرعية حقوقها، أو بعبارة أفضل أن ترد لها حقوقها الضائعة منذ زمن، إذا ما رجعنا إلى نظام المماليك العربية سنجد أن تقدم العامة لطلب بنات العائلة الحاكمة لا وجود له، رغم أن الإسلام لم يميز بين الحاكم والمحكوم ولا بين الأمير وما دونه....، بل لم يميز بين الأبيض والأسود، قال صلى الله عليه وسلم: « لا فرق بين عربي وأعجمي ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى».

ورغم أن الكثير من الحقب اللاحقة لفترة ما بعد الإسلام تبنت أراء وأفكار نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام قولا، إلا أنها لم تتبناها أفعالا، وعلنا لا نغفل وقتنا الحالي، إذ مازالت الكثير من الأسر في المجتمعات العربية تعيش على نفس الوتيرة.

«شمس: لحظة واحدة أرجوكم....اسمع يا قمر الزمان...افرض أني أصبحت زوجة لك، ماذا ستصنع بي؟....

قمر: ماذا سأصنع بك؟.....لن أصنع بك شيئا....أنت التي تصنعين بنفسك ولنفسك....(....).»[11]

إن هذا ما أرادته هذه المرأة، أرادت أن تصنع نفسها بنفسها، أرادت رجلا يختلف عن بقية الرجال، فحاولت استفزازه بالجاه والسلطان لتتأكد من صحة قرارها، ولتعرف هل هو حقا الرجل المناسب لأفكارها وحياتها.

«شمس: (...) اسمع يا قمر الزمان...ألم يخطر لك أنك إذا فزت بي سأكون لك بمالي وجاهي؟.....

قمر: وماذا تصنعين أنت بي عندئذ؟

شمس: هذا شأني.

قمر: ولكنه شأني أيضا.

شمس: ستكون زوجي.....ولن يطالبك أحد بأن تصنع شيئا....

قمر: إني لم أتعود أن أعيش دون أن أصنع شيئا.

شمس: ستصنع شيئا....سندربك لتصبح يوما حاكما.

قمر: حاكما...

شمش: نعم...حاكما مثل أبي...

قمر: ومن قال إني أريد أن أكون مثل أبيك....»[12]

حتى إن قمر يرفض السياسة وأن يكون حاكما على رعية، إن كان "توفيق الحكيم" قد أعطانا صورة للسلطة الذكرية المستبدة بآرائها على الأنثى خاصة، فقد حاول أن يعطينا صورة ذكرية إيجابية، تنظر للمرأة نظرة نموذج لا نظرة احتقار وذل، حينما أقر لها بأنها تستطيع أن تصنع من العدم شيئا، ربما هذا ما جعل "شمس" ترى فيه الرجل المناسب لحياتها، فقد وافقت على الزواج به، بيد أن "قمر" اشترط أن تنجح الأميرة في أن تصنع منه شيئا للزواج بها، إذا هو ميزان أن يصنع كليهما من الآخر شيئا إيجابيا.

لكن القارئ يخرق أفق توقعه بطل المسرحية "قمر" الذي يطلب من الأنثى "شمس" مرافقته في رحلة إلى الخلاء ليصنع كل واحد من الآخر شيئا-إنسانا-.

«السلطان: يأتي وينتزعك من قصرك ويمضي بك دون أن يتزوجك؟...

شمس: حقا....هذا...

السلطان: هذا فظيع، أين كرامة المرأة فيك...»[13]

يتضح أن السلطان رغم مكانته إلا أنه لم ينس التقاليد والأعراف وقوانين المجتمع المدنية والدينية، إذ تعتبر مرافقة المرأة لرجل أجنبي دون رابط شرعي خرق للمعتقدات والأطر.

إن السلطان هنا يتساءل عن كرامة الأنثى، ما محلها من الإعراب عند ابنته الأميرة؟.

أليست دعوة من "توفيق" إلى مواكبة المرأة الغربية الأوروبية؟، ربما، مهما دعت الحضارة إلى تحرر المرأة من بعض القيود، إلا أنها لم تدع إلى التمرد على قيمها الأخلاقية والدينية والاجتماعية وحتى السياسية.

لذا لا مانع أن تتدخل سلطة الذكر/السلطان/الوالد في منع الأنثى من هذا التجاوز غير المشروع.

حتى إن الأميرة/الأنثى ترفض عرض "قمر"/الذكر في بداية الأمر.

« شمس: فعلا يا قمر الزمان....يظهر أنك نسيت أني امرأة (...) أنت حر في نظرك....ولكني في نظر الناس.... لم أزل...امرأة.

قمر: أنا آسف...لقد أخطأت التقدير.

شمس: وماذا كان تقديرك لوصف الرابطة بيننا.....بين رجل وامرأة يسيران معا في الحياة هكذا؟...»[14]

إنه خطاب صريح من الأنثى/الأميرة، لم تنس الأميرة بأنها امرأة، حتى لو أنها ذات سلطة عالية فلا يمكنها تجاوز حدودها، كونها أنثى، كونها امرأة، لا يمكن للمرأة أن تتمرد على قيمها، هذه هي الأنثى التي يجب أن تكون، أنثى تكون حياتها بنفسها لكن ليس على حساب القوانين والدين والمجتمع، « يتم إنتاج الموضوع، موضوع المرأة إذن عبر الما قبليات الطبيعية، بحيث تكون المرأة كائنا بشريا من نوع خاص، ذي بيولوجيا خاصة تحد من استعداداته الفطرية وتبعا لذلك تحد من مجالات تصرفه.»[15]

أكيد فللمرأة طبيعة تختلف عن طبيعة الرجل (جسدا وفكرا) وهذا ما لا يؤهلها للقيام بتصرفات مماثلة لتصرفاته، ولو لم تكن هذه الفوارق لأصبحنا مثل المجتمع الأوروبي تماما يمكن للمرأة أن تقوم بما يقوم به الرجل دون نهر.

لقد أعلنت "شمس النهار" عصيانها وتمردها على والدها حينما رفضت الزواج بالطريقة التي يفرضها هو، لكنها –كما يبدو- لم تتمرد على سلطة الدين ولا المجتمع.

نستطيع القول إن المرأة هنا متمردة على قوانين دنيوية لم ترض بها، ومتبعة لقوانين تعرف أن تجاوزها هو حط من كرامتها.

ومع هذا لم يكمل لنا "توفيق" صورة المرأة كما توقعناها، لقد خرقت "شمس" أفق انتظارنا حينما قررت السفر مع "قمر" لكن بزي جندي رجل، نتساءل: لماذا غيرت الأنثى رأيها وقررت السفر مع رجل أجنبي؟، لماذا اختارت الأميرة الخروج بزي رجل؟.

ربما تغيرت الرؤية عندها، أما الثاني فربما قطع لكلام الناس، أو هو خوف على شرفها وكرامتها.....خطابات عديدة يمكن أن تنطوي تحت هذا التصرف، ولكن الأهم: هل تمردت الأنثى على كل قيمها وتجاوزت أطر المحظور الاجتماعي والديني وحتى السياسي؟ ألم تكن للسلطة الذكورية المتمثلة في السلطان الوالد أي تأثير أو رادع؟ هل فعلا يمكن للأنثى العربية ذات المكانة المرموقة، كما صورها "الحكيم" أن تعيش كالمرأة الغربية؟ ربما نعم وربما لا.

لو فرضنا بأن "شمس" تمردت على كل الأنظمة لأمكنها الخروج مع "قمر" بزي أنثى، ولو فرضنا بأن "شمس" لم تتمرد على الأنظمة لمنعت نفسها من الخروج إلى الخلاء مع رجل غريب، سنحاول معرفة مقصد الأنثى، أهو التمرد من أجل التمرد؟ أم هو التمرد من أجل صنع ذات وحياة جديدة؟.

«الحرية حق طبيعي للمرأة، إنه امتياز أخلاقي، وفوق كل شيء آخر، فهو واجب ديني (...) وحق المرأة في الحرية مقدس مثل حقها في الحياة، والحرية تساوي الحياة ذاتها.»[16]

لقد أعطى الإسلام الحرية للمرأة في عديد المجالات، وليس كما تدعي الأفواه الأخرى، غير أن للحرية حدود، وكما يقر الفلاسفة لا توجد حرية مطلقة فكل ما هو حر مقيد بالضرورة.

إن كانت سلطة أو سياسة الوالد هي تربية ابنته على أن يخدمها غيرها في المأكل والمشرب والغسل....وغيرها، فإن سياسة "قمر" مختلفة تماما حيث حاول أن يصنع من الأميرة أنثى قبل كل شيء، إذا ما قلنا أنثى معناها قيامها بواجباتها المنطقية طهي وغسل...وغيرها.

« قمر: أنا أقوم وأبحث لك عن الطعام؟....العفو....لقد تركت قصرك وراء ظهرك.....هناك كل شيء إليك وأنت جالسة في فراشك....أما هنا فكل شيء يجب أن تصنعيه بنفسك....»[17]

المرأة «لا يليق بأنوثتها وطبيعتها الجسدية وعقليتها القاصرة أن تتعدى حدود مهامها الموكلة لها من طبخ ونفخ وكنس وحمل وإرضاع.....»[18]

هدا ما يراه "قمر" في الأنثى التي اختارها، حيث تتعرف "شمس النهار" في رحلتها عن الأنثى أو المرأة التي يريدها الرجل الذي تريده، ليست امرأة القصور، أو الأميرة الآمرة الناهية، بل التي تكد في واجباتها البيتية لتصنع ذاتها وغيرها-أسرتها-.

إذا، نستطيع القول إن "قمر" الذكر قد صنع من أميرة القصر امرأة/أنثى، لم تستطع السلطة السياسية، متمثلة في السلطان/الوالد-صناعتها.

لم تخرج المسرحية عن فكرة السياسة وعلاقة المرأة بها، إذ يعالج الفصل الثالث والأخير منها سلطة الأمير "حمدان" الذي لا يهمه شيء في المملكة سوى إملاء معدته بالأكل وخزانته بالأموال.

يريد الأمير "حمدان" –كغيره من الأمراء- التقدم للزواج من الأميرة "شمس النهار" غير أنه يخجل من أن يجلد، ومع هذا فهو يبحث للكشف عن صفات الرجل الذي تبحث عنها هذه الأنثى.

«التابع: ما من امرأة تقاوم إغراء ثرائك...

الأمير: ثرائي؟

التابع: خزائنك المملوءة بالذهب يا مولاي.....وقصرك العامر بالتحف والجواهر.

الأمير: أو تظن الأميرة شمس النهار لم يتقدم إليها أفواج من الأمراء وأصحاب الثراء....»[19]

فهي امرأة لم تهتم بالمال رغم مكانتها السياسية والاجتماعية، ولذلك يحاول الأمير البحث عن ميزة أخرى.

« التابع: شبابك يا مولاي..

الأمير: شبابي؟...

التابع: إنه كميزة كبرى....

الأمير: أو تظن أيها الأحمق أن من تقدموا لتلك الأميرة كانوا شيوخا....»[20]

لا ترى الأنثى في الرجل مجرد شبابه وماله فقط، وقد توصل الأمير إلى هذا الاستنتاج من خلال الرجال الذين تقدموا للأميرة "شمس النهار"، إنه يبحث عن الشيء الذي تريده هذه المرأة باعتبارها متميزة عن بقية النساء.

ولكن هل هي متميزة عن كل النساء؟ أم عن نساء العائلات العليا فقط؟، في مجتمعنا العربي تجد صنفان من نساء العائلة ذات الحسب والنسب العالي، صنف يرى أنه لا يمكن أن ينقص من قيمته لرجل أقل مرتبة مالا ومنصبا، وصنف يرى أن الرجل لا يقاس بجاهه ومنصبه فقط.

كثيرا ما تنشغل السلطة بأمور بعيدة عن شؤون الرعية، حتى إنها لا تعلم ما يدور في الجو العام والمحيط بها، تسرق خزنة المال في مملكة "حمدان" دون أن ينتبه أحد لذلك.

« الأمير: كل ما في الخزائن موجود؟...

الخازن: لم ينقص دينار...

الأمير: عجبا....وهذه الصرة إذن لمن؟

الخازن: هذه الصرة؟

الأمير: يظهر أنك لا تعرف شيئا مما تحت يدك من أموال....»[21]

هذا هو حال الأنظمة العربية، اختلاسات دون رقابة دون محاسبة، المهم هو أن الجميع يحيا حياته دون مشاكل، وهذا ما يؤدي إلى تهميش طبقات كثيرة في المجتمع بسبب سياسة عدم الاكتراث، فحينما يرد المال المسروق تتستر السلطة على الأمر.

«شمس: إذن....إذا كان من جنس الرأي عندكم التستر على الفساد، فهذا شأنكم.....أما نحن فقد قمنا بواجبنا على كل حال، فاسمحوا لنا الآن بالانصراف...

الأمير: فعلا....لقد أديتما الواجب نحوي...

شمس: ليس نحو....نحن لا نعرفك....الواجب نحو ما ينبغي أن يكون...».[22]

تريد الأنثى إرساء معالم العدالة وطرد الفساد من سلطة سياسية ذكورية طالما عرفت بهذا النمط، سلطة ظالمة على مر عصورها ناذرا ما عرفت بالعدالة والحق، ناذرا جدا.

نجحت الأنثى "شمس" في تغيير بعض الموازين التعسفية، في السلطة التي اكتسحها الفساد، من خلال التغيير في المساعد وملاحظ الخزينة اللذان قاما بسرقة المال.

« المساعد: صرنا السجن والسجان والمسجون في جسم واحد.....

الملاحظ: وأخيرا رأينا خلاصنا في العقاب....

المساعد: في تسليم أنفسنا للعدالة.....»[23]

استطاعت الأنثى أن تصلح من بعض شؤون السياسة، حين سلم اللصان نفسيهما دون إكراه، لقد استطاعت "شمس" أن تبعث صحوة الضمير، ولكن، كل هذا والأميرة الأنثى في زي جندي رجل، هذا ما يجعل الأذهان القارئة تطرح السؤال التالي: ماذا لو كانت "شمس" في زيها الأصلي-أنثى-هل يمكنها التغيير في الرجال ونظامهم؟ ربما نعم وربما لا؟.

حسب رأينا فإن "توفيق" يرى أن صورة الأنثى هي الأنثى، لا يمكن لها تأدية مهام أكثر من واجباتها التي أوكلت إليها، فلو استطاعت التغيير في الرجال وسياستهم السلطوية لما ألبسها "الحكيم" زي رجل.

" إذا، فهي امرأة لم تصنع سياستها ضمن الخطاب المعلن، إنما بقي صوتها مضمرا مثل صورتها..."

يصرح الأمير حمدان للجندي-نقصد "شمس النهار"، بأنه يريد الزواج بالأميرة، فيسأله عن شروطها التي حيرته طويلا.

«شمس: يخيل إلي أنها تفضل السير على طريق.

الأمير: مفروش بماذا؟

شمس: غير مفروش على الإطلاق....طريق عادي...

التابع: عادي؟.....إذن تريد أن يكون الموكب....

شمس: ولا مواكب أيضا على الإطلاق..

التابع: لا مواكب؟...وكيف يسير إليها الأمير إذن؟

شمس: على قدميه...

التابع: ما هذا؟....أهي تريد إذلاله إذن؟

شمس: ربما تريد أن ترى فيه مجرد إنسان....»[24]

استطاعت الأميرة أو المرأة أو الجندي المقنع أن يغير من سلطان لطالما اهتم بإشباع بطنه وملأ خزائنه مالا، استطاعت أن تجعل منه إنسانا يعتمد على حاله لا على غيره في خدمة نفسه، أليست نفس الطريقة التي صنع بها الرجل "قمر" من الأميرة "شمس" أنثى؟.

تكشف لنا المسرحية شيئا من السلطة الفاسدة، وتعري القناع عن المستور السياسي.

« شمس: ماذا وجدت؟

الأمير: إنها فعلا ميتة....ولكنها قائمة في مكانها....أشباح صامدة...أعينها مفتوحة...ولكن أهدابها لا تتحرك..... وأيديها ممدودة .....ولكنها كالمتجمدة...

شمس: هل بقي في جرابك شيء من الخبز؟

الأمير: (يفتش في جرابه) نعم....

شمس: أخرجه وضعه في تلك الأيدي (...).

الأمير: عجبا...عجبا...بدأوا يتحركون....الأيدي أخذت تصنع الخبز في الأفواه....إنهم يأكلون....إنهم يأكلون....إنهم يسيرون.....لقد فك السحر فعلا....فك السحر عن القرية....»[25]

ليست قرية مسحورة، بل ظلم السلطة جعل منها مدينة الأحياء الاموات، موتى بسبب الجوع والقهر، فتاة الخبز أحياهم من جديد، إنها الأنثى التي حاولت كشف المستور سياسيا لنظام ظالم، أنثى أرادت تعرية الواقع السياسي المرير لهذا الأمير.

« شمس: أدركت الآن؟

الأمير: نعم...السائر على قدميه يرى أشياء والراكب لا يرى شيئا....»[26]

جيد، فالإنسان لا يكتشف آلام وآمال الآخرين إلا إذا كان بينهم، فلو مر الموكب الملكي كعادته ولم يمش الأمير على قدميه، لما أمكن كشف معاناة الرعية، لذلك من المفروض أن تنزل السلطة إلى الشعب وأرضه، لا أن يعلو هو لها.

نصل إلى ختام المسرحية مع قراءة لآخر خطاباتها الذكورية، إنه شك الرجل الدائم في المرأة فقط لأنها امرأة لا غير.

« قمر: أخبريني ماذا حدث تلك الليلة؟.....عندما انصرفت مع هذا الرجل إلى حجرته....وتركتني أتخبط بين أيدي تابعيه؟...

شمس: ماذا تظنه قد حدث؟

قمر: ألم يحاول...

شمس: كيف يخطر في بالك مثل هذه الأفكار الدنيئة؟

قمر: الدنيئة؟

شمس: يظهر أنك نسيت من أنا؟

قمر: أنت امرأة....»[27]

إنه خطاب صريح، فرغم زعم "قمر"-مع بداية الأحداث-في أن يصنع من الأميرة امرأة علما أنه هو الذي اشترط خروجها معه دون رابط، ها هي الأفكار الدونية حول المرأة منقوشة في فكر الرجل مهما كانت مكانته وأرضه وزمانه.

ألم يصنع "قمر" هذه الأنثى التي أمامه الآن؟، ومع ذلك شك في أخلاقها وشرفها، هنا لابد للقارئ أن يرجع لنقطة جد مهمة، " خروج شمس النهار" مع "قمر الزمان" وموافقتها على تلك الرحلة هي التي طبعت في ذهنه صورة سيئة للمرأة.

تصطدم الأميرة لهذا الأمر، حتى أنها تتردد في اختيار شريك حياتها، تحتار بين رجل صنعها ولم تصنعه "قمر الزمان" الرجل البسيط، وبين رجل صنعته ولم يصنعها إنه "حمدان" الأمير.

«قمر: نعم...الأميرة والأمير...ها هي الأوضاع قد عادت إلى أصلها...»[28].

إنها عودة للبداية، عودة لمنطلق الوالد الذي رأى أن ابنته الأميرة لا تكون إلا لمن يوازيها مكانة، أو هو إحساس الذكر بالنقص نتيجة لمستواه الاجتماعي.

رغم أن الأنثى "شمس" صنعت من الذكر "حمدان" سلطانا عادلا ليصلح شأنه وشأن مملكته، إلا أن قلبها معلق ب "قمر" حيث تختاره دون القصور والمال والأمراء، فقط لأنه أطلعها على جوهرها الأنثوي.

« قمر: نعم....معنى ذلك أن تسلكي نفس طريق حمدان....إن تعودي إلى بلدك، وتعملي على إصلاحه....

شمس: بمفردي؟...

قمر: نعم....بمفردك....شعبك محتاج إليك....ولن يقبل تغييرا وإصلاحا إلا منك وحدك، النابتة منه، الناشئة فيه....

شمس: وأنت؟

قمر: أعود إلى حياتي...حياتي التي يجب أن أعيشها.....مع أولئك الذين نشأت بينهم....»[29].

يصطدم القارئ بهذا الخطاب-خطاب خرق أفق توقعنا، كنا ننتظر زواج "قمر" بالأنثى التي صنعها، لكن هنا تشويش في نقل رسالة معينة.

استطاع الذكر النجاح في المهمة التي أوكلها إليه "توفيق الحكيم" ولكنه فشل في إكمال طريقه، هل لأنها أنثى لا كما يتمناها هو والمجتمع (فكرة تمردها على عادات وقيم المجتمع).

يمكن القول إن "قمر" الذي صنع في البداية الأنثى "شمس" قد أعادها من جديد إلى يد السلطة السياسية.

إذا كان "قمر" يعتقد أن هذه الأنثى ستقود المشعل السياسي فهو مخطئ، لا يمكن أن ينسى الكاتب أن هذه الأنثى غيرت في نظام "حمدان" التعسفي حينما كانت في زي رجل، « ولذلك فإن السياسة تعد مجالا ذكوريا لم يكن للإناث أهلية للخوض فيه بمبرر الأوصاف التي رحن ينعتن بها، ولا يزال هذا التصور اليوم (...) يشكل أساسا لأفكار قسم واسع من المجتمعات الإنسانية خاصة مجتمعنا.»[30]

لقد صور "الحكيم" المرأة بصور متعددة:

- أنثى ذات مبدأ (حينما رفضت زواج مصلحة من طرف السلطان).
- أنثى غيرت في النظام السياسي (حينما غيرت نظام سياسة "حمدان")، فهي استطاعت التغيير وفرض نفسها على السلطة السياسية الذكورية.
- أنثى مهما كان شأنها، وصورة المرأة تطبع في الأذهان حسب كل تصرف تقوم به، هذا ما جعل صورتها سوداوية في نظر "قمر".

إذا، فالمرأة حسب "الحكيم" ذات نمطين مختلفين في مجتمعنا، نمط إيجابي يمكنه تغيير السياسة إلى الأحسن، ونمط سلبي إذا خالفت نظم وقوانين المجتمع، فالمرأة لا يمكنها تجاوز نفسها إذ تبقى امرأة حتى لو غيرت موازين عالم ظالم.

الهوامش:

[1]- عادل عبد الغفار، الإعلام والمشاركة السياسية للمرأة، رؤية تحليلية واستشراقيه، الدار المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة، مصر، 2009، ط1، ص: 70.

[2]- توفيق الحكيم، شمس وقمر، دار قرطبة للنشر-الجزائر، 2006، ط1، ص: 08.

[3]- المصدر نفسه، ص: 09.

[4]- محمد علي صالح المنصوري، الحقوق السياسية للمرأة في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، دار الانتشار العربي للنشر، بيروت، لبنان، 2011، ط1، ص: 67.

[5]- أحمد القبانجي، المرأة المفاهيم والحقوق، قراءة جديدة لقضايا المرأة في الخطاب الديني، دار الانتشار العربي للنشر، بيروت، لبنان، 2009، ط1، ص: 292-293.

[6]- توفيق الحكيم، شمس وقمر، ص: 09.

[7]- المصدر نفسه ، ص: 11.

[8]- المصدر نفسه، ص: 13.

[9]- المصدر نفسه، ص: 22.

[10]- المصدر نفسه ، ص: 13.

[11]- المصدر نفسه، ص: 25.

[12]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[13]- المصدر نفسه، ص: 30.

[14]- المصدر نفسه، ص: 31.

[15]- رجاء بن سلامة، بنيان الفحولة، أبحاث في المذكر والمؤنث، دار المعرفة للنشر، تونس، د، س، د.ط، ص: 142.

[16]- محمد علي صالح المنصوري، الحقوق السياسية للمرأة في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، ص:49.

Abdul Ati, Hammuda, Islam in Focus, p : 33-34 نقلا عن:

[17]- توفيق الحكيم، شمس وقمر، ص: 38

[18]- وضحى سيف الجهوري، النصف الخصيب، رؤية جديدة في قضايا المرأة، دار نينوى للنشر، دمشق، سوريا، 2011، د.ط، ص: 83.

[19]- توفيق الحكيم، شمس وقمر، ص: 74.

[20]- المصدر نفسه، ص: 38.

[21]- المصدر نفسه، ص: 75.

[22]- توفيق الحكيم، شمس وقمر، ص: 76-77.

[23]- - المصدر نفسه ، ص: 79.

[24]- المصدر نفسه، ص: 84.

[25]- المصدر نفسه ، ص: 90.

[26]- المصدر نفسه ، ص: 98-99.

[27]- المصدر نفسه، ص: 99.

[28]- المصدر نفسه، ص: 101.

[29]- المصدر نفسه ، ص: 103.

[30]- المصدر نفسه، ص: 109-110.